رِحْلاتُ الحجِّ الهنديَّةُ
مَصْدَرٌ مَنْ مَصادرِ تاريخَ الجزيرةِ العربيّةِ
رِحلةُ (زَادِ غَرِيب) أنموذجًا

الدكتور: إبراهيم بن محمَّد البطشَان *

* ليسانس في علوم اللغة العربية من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٠٠ـ ١٤٠١هـ.
- ماجستير في الأدب العربي من الجامعة نفسها عام ١٤١٧ـ ١٤١٨هـ.
- دكتوراة في الأدب العربي من الجامعة نفسها عام ١٤٢٢ـ ١٤٢٣هـ.
- يعمل الآن في الملحق الثقافي السعودي في الهند.

تُعَدُّ الرِّحلةُ إلى الدِّيارِ المقدسةِ ؛ لأداءِ فريضَةِ الحجِّ من أهمِّ الظواهرِ في تاريخِ الشُّعوبِ الإسلاميَّةِ ؛ حيث تتمُّ دراسةُ تلك الرحلاتِ من خلالِ التدقيقِ والتحليلِ في البياناتِ والمعطياتِ المستوحاة من تلكَ الكتاباتِ في سياقها الزَّماني والمكاني ، كما تدعو تلك الكتاباتُ إلى تحليلِ التجربةِ الفرديَّةِ لمؤلفيها على خلفيَّةِ المحيطِ الاجتماعي والسياسي الذي امتدت فيه هذهِ التجاربُ.

وعلى الرّغمِ من أنَّ معظمَ الرِّحلاتِ الدينيةِ التي ظهرتْ في الهندِ خلالَ القُرونِ الماضيةِ تمَحْوَرَتْ حَولَ زيارةِ الحَرَمينِ الشريفينِ وَما تُحيطُهُما من المدنِ المجاورةِ في الحجاز، إلا أن عدَدًا من الرَّحّالةِ الهنودِ ألَّفوا رحلات شَملَتْ زيارةَ مُدُنٍ إسلاميةٍ أخرى مثلُ القُدسِ والكوفةِ والبصرةِ وكَرْبلاءَ والنَّجفِ ودمَشْقَ وغيرِها ؛ لمكانتِها الدينيةِ لديهم، ولوقوعِها في طريقِ الحاجِّ القادمِ برًّا منَ الهند إلى الحجازِ .

اتخذت رحلاتُ الحجِّ أشكالًا مختلفةً في بلادِ الهند، متمثِّلَةً في كتبِ الرَّحلاتِ، والمقالاتِ ، والرَّسائلِ، والمناسِكِ. وهي تصِفُ - بدرجاتٍ

متفاوتـة وطرقٍ شتَّى - خـبرات مؤلفيها الدينيَّةَ والمعرفيَّـةَ والاجتماعيَّةَ ، وتصوِّر ثقافات مختلف البلادِ والأصقاع الإسلاميَّة التي يمرُّ بها مؤلفوها ، وتصفُ معانيَ الحجِّ ومفاهيمَهُ كمـا يدركُهـا ويُجَرِّبُها كتَّابُهـا ، وترسمُ الكثيرَ من الرمـوزِ والطُّقوسِ الدِّينيَّـة والعَقَديَّةِ الشَّائعة بين المسلمينَ في اختلافِ الزَّمانِ والمكانِ.

إنَّ معظـمَ رحلات الحجِّ الهنديـة ليستْ مجردَ وَصْفِ المَشَاهدِ وسَـرْدِ الأحداث ، بَلْ هــي بمَثَابَـة دليـلٍ وَمُرشد في الوقت ذاته لمـن يَنْوي أداءَ هذه الشعـيرة ، فلا تقتصرُ على ذكْـرِ تلكَ المشاهدِ التي اكْتَحَلَتْ بها عيونُ مؤلفيها في رحـاب الحرمين وَمَا يُجَاوِرُهُما من المشاعـرِ المقدسـةِ ، بل تُفيدُ القارئَ بكل ما لا بُدَّ مـن معرفته قبل شَدِّه الرحالَ إلى الديارِ المقدسـةِ، مثل اقتناء ما ينبغـي من الزَّادِ ، ومعرفة أنواع النقودِ والإجراءات المختلفة التي ينبغي للحاجِّ استكمالُها قبلَ بدءِ الرحلة وأثنائهَا ، وما إلى ذلك من معلوماتٍ أخرى تُوَفِّرُ على الحاج كثيرًا من جُهدِه وتَعَبِه ، وتُخَفِّفُ عنه وَعْثَاءَ السفر وعَنَاءَه.

يَعُـودُ تَاريـخُ كتابةِ رحلات الحجِّ في الهندِ إلى أَوَاخرِ القرنِ العاشرِ الهجري ؛ حينَ حَجَّ الشيـخُ عبدُ الحقّ المحدثُ الدِّهْلويُّ (١٠٥٢هـ)[1] ، رائدُ علم الحديث في الدِّيارِ الهندية، في سنـةِ ٩٩٨هـ ، وأَلَّفَ كتابَه (جَذْبُ القلوبِ إلى ديارِ المحبـوب) الذي يُرَكِّزُ في موضوعه الأسـاسِ على تاريخ المدينة المنورة ، إلَّا أنـه سَجَّلَ بعضَ الملاحظاتِ والانطباعاتِ حول ما شَاهَـدَهُ في أثناءَ رِحْلَته وإقامته في الديار المقدسة ، وكَتَبَهُ باللغةِ الفارسيةِ ، وهي السائدةُ آنذاكَ في رُبُوعِ الهند باعْتبَارِها اللغةَ الرسميةَ ولغةَ العلمِ والثقافةِ.

يقول في أثناءَ حديثه عن مسجدِ بني قُرَيظَةَ :

(يَقَـعُ هـذا المسجدُ في جهةِ الشرقِ مـن مسجد الشمسِ بالقربِ مـن الحَرَّة الشرقية، حيثُ تَنتهي بساتينُ المدينةِ. هذا هو المكانُ الذي نَزَلَ به الرسولُ -عليه الصلاةُ والسلامُ-

(١) الشيخ عبد الحق بن سيف الدين بن سعد الله البخاري الدهلوي (١٠٥٢هـ)، أول من نشر علم الحديث بأرض الهند تصنيفًا وتدريسًا . تعلم على كبار علماء الهند والحجاز، نشر العلوم الإسلامية لاسيما الحديث في الديار الهندية، له مؤلفات قيمة في الحديث والفقه والعقائد. انظر : **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام** ٥ : ٥٥٣.

حين حاصَرَ بني قُريظةَ (إحدى قبائل اليهود). وَقد جاء في روايةٍ أن الرسولَ -عليه الصلاةُ والسلامُ- صَلَّى في بيتِ امْرَأةٍ جَنْبَ هذا المكانِ، وَضَمَّهُ الخليفةُ الوليدُ بن عبدِ الملكِ إلى مسجدِ بني قُريظةَ في أثناءِ توسيعه. وكانت قد بُنِيَتْ منارةٌ مثلُ منارةِ مسجدِ قباءٍ فوقَ مكانِ البيتِ، ولكنْ عَبثَ بها الزمانُ فاندثَرَتْ، وَظَلَّتْ آثارُها موجودةً حتى عام ٩١٠هـ؛ حيثُ بُنِيَتْ مكانَها مصطبة يساوي ارتفاعُها نصفَ قامةِ الإنسانِ، وما زالتْ موجودةً إلى اليوم. كان المسجدُ القديمُ يُشْبهُ مسجدَ قُباءٍ في تصميمه وسَقْفه وأَعْمدَته ومناراتِه، ولا يوجَدُ هناكَ اليومَ إلا مساحةٌ مُسَوَّرَةٌ طُولُها مِن الجَنُوبِ إلى الشَّمالِ أربعٌ وأربعونَ ياردةً ومن المشرق إلى المغرب اثنتان وعشرون ياردةً.)[١].

يَتَمَيَّزُ (جَذْبُ القلوب إلى ديارِ المحبوبِ) بكَوْنه فاتحةَ رحلاتِ الحجِّ في الهندِ. تَحتويْ هذه الرحلةُ على ١٧ باباً تَحَدَّثَ من خلالها الشيخُ الدهلويُّ عن فضائلِ المدينةِ المنورة، وَذَكَرَ أسماءَها وتاريخَها، وآدابَ زيارَتها والأدعيةَ والمأثورات الخاصةَ بها، كما وَصَفَ زيارَتَهُ للمسجد النبويِّ والروضة المطهَّرَة والأماكنِ التاريخيةِ الأُخرى في المدينةِ المنورة.[٢]

مَضَى قَرْنٌ ونصفُ منذُ ظُهُورِ (جَذْبُ القلوب إلى ديارِ المحبوب) دُونَ أَنْ تَتْلُوهَا رحلةٌ بقلمِ كاتبٍ أو رحالةٍ هنديًّ، إلى أنْ أَنْجَبَتِ الهندُ عالماً حَمَلَ لواءَ علمِ الحديث، وَبَذَلَ في نشرِه جهودًا مخلصةً ومَساعيَ مشكورةً، ألا وهو مَفْخَرَةُ الهندِ الإمامُ الشيخُ شَاهْ وَليُّ الله المحدثُ الدِّهْلويُّ (١١٧٦هـ)[٣]، صاحبُ (حُجَّة الله البالغَة)؛ فَقَدْ حَجَّ الإمامُ الدهلويُّ عامَ ١١٤٣هـ، وَأَلَّفَ كتاباً سَمَّاهُ (فُيُوْضُ الحرمين) بالفارسيةِ، وَسَكَبَ فيه حَرارةَ مشاعرِه الفياضةِ التي اتَّقَدَتْ في وِجدانِه في أثناءِ إقامته في رُبُوعِ الحرمينِ. وعلى

(١) جذب القلوب إلى ديار المحبوب، ١٤٤.

(٢) انظر: أردو أدب مين سفرنامه، ٤٦٥، وأردو مين حج كي سفرنامي، ٥٢.

(٣) قطب الدين أحمد ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (١١٧٦هـ)، من كبار علماء الهند في التفسير والحديث والعقيدة والفقة والأدب والشعر. له مؤلفات كثيرة، من أشهرها: **الفوز الكبير في أصول التفسير**، **المصطفى في شرح الموطا**، **حجة الله البالغة**، وله ديوان شعر. انظر: **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام** ٦: ٨٥٨، **وساعة مع العارفين** ١: ١١٤.

الرَّغـم مِـنْ قلة اهتمام الشيـخ وليِّ الله الدهلـويِّ بوَصف ما شَاهَدَهُ في أثنـاء رحلته من الأماكـنِ والمشاعر ؛ حيثُ كان جـلُّ اهتمامه ذكرَ المسائلِ الفقهية واتخـاذ الكتاب وسيلة الدعـوة إلى سَـوَاءِ السبيـل ؛ إلا أنه تَطَرَّقَ في كتابـه ، الفَينَةَ بَعْدَ الفَيْنَـة ، إلى ذكر بعض المشاهد ، ممَّا جَعَلَ للكتاب مكانةً علميةً وتاريخيةً بين رحلات الحج الهندية. [١]

وَلم تَظْهَـرْ في الهند رحلةٌ تَتَّسمُ بأسلوب رحـلات الحج إلا في العقْد الثامنِ من القرن الثامـن عشر الميـلادي ؛ حَيثُ أَلَّفَ الشيخُ المحدثُ رفيعُ الدينِ المُرَاد آباديُّ (١٢٢٣هـ) [٢] رحلتَهُ (سَوَانحُ الحرمين) بالفارسية أيضًا.

خَرَجَ الشيخُ المراد آباديُّ حاجًّا سنة ١٢٠١هـ بسَفِيْنَة شراعيَّة ، وَذَكَرَ في كتابه أحوالَ رحلته البَرِّية والبَحريَّة. وَممَّا يُمَيِّزُ هذه الرحلةَ أَنَّ صاحبَهَا تَحَدَّثَ فيها عن العلماءِ والمَشايخ الذينَ تَشَرَّفَ بلقائهم واستفادَ منهم في أثناءَ هذه الرحلة. [٣] وتُعَدُّ كتاباتُ الشيخ رفيع الدينِ باكورَة رحلاتِ الحجِّ في شبهِ القارَّة الهندية من حيث أسلوبُها الخاص بكتابةِ الرحلات. يقول الشيخ المراد آبادي في رحلته متحدثاً عن مَسيره من السَّعْديَّة إلى مكة :

(غـادرتُ السَّعديةَ عندَ الضُّحَى في ١٤ شوال (يومَ الإثنين) ، ووصلتُ إلى مكةَ المكرمة في يومـين؛ بعدَ أنْ قطعتُ مسافةَ أكثرِ من عشرِ كيلومترات ماشيًا ، حافيَ القدمين وعاريَ الرأسِ ، وكانـت الشمسُ شديـدةً ؛ فكانتْ تَحترقُ بهـا الحَصَى والرمـال ؛ فسبَّبَ ذلكَ مصاعـبَ ومتاعبَ كثيرة ، ولكنَّ زيـارةَ الكعبةِ ورؤيةَ جمالِها أزالتْ عني كلَّ ما عانيتُه من عَنَاء ومشقة طُولَ حياتي) [٤].

ولم تُسجَّلْ رحلاتٌ هنديَّةٌ كثيرةٌ بعد الشيخ رفيعِ الدينِ حتى جاءتْ رحلةُ النَّواب محمد

(١) انظر : **أردو أدب مين سفرنامه** ٤٦٦، **وأردو مين حج كي سفرنامي**، ٥٣.

(٢) رفيع الدين بن فريد الدين بن عظمة الله اللكنوي ثم المراد آبادي، (١٢٢٣هـ) ، أحد العلماء المشهورين، من تلامذة الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي . له مؤلفات كثيرة، منها : **قصر الآمال بذكر الحال والمآل، شرح الأربعين النووية، تذكرة المشايخ وغيرها**. انظر : **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام** ٧ : ٩٧٤.

(٣) انظر : **أردو أدب مين سفرنامه** ٤٦٦، **وأردو مين حج كي سفرنامي**، ٥٤

(٤) **أردو مين حج كي سفرنامي** ٥٥.

مصطفى خانْ شيفْتَه [1]: بَرَاه آوُرْدْ (في سبيلِ الرَّشاد) في عام ١٢٥٤هـ بالفارسية، ورحلةُ عَطَاء حُسين فَانيْ الغَيَاوِيِّ (١٨٨٩م) [2]: ديْدِ مَغْرِبْ (رؤية الغرب) المعروفُ بهداية المسافرينْ (رحلةُ الحرمين المعروفةُ بـ هداية المسافرين) في عام ١٢٦٠هـ بالأُرْدِيَّة، ورحلةُ مَلِكَة بَوبال سِكَنْدَرْ بَيْغَمْ [3]: تاريخ وَقَائِع حَجّ (تَاريخُ وَقائع الحجِّ) في عام ١٨٦٤م بالأردية أيضًا. ثم تسارعت وتيرةُ كتابة رحلات الحجِّ خلالَ الفترةِ من ١٨٧٠م إلى ١٩٥٠م ؛ فقد نشرَ كثيرٌ من المؤلفين رحلاتهم ، فبلغ عددُها في العقودِ الأربعةِ الأخيرةِ أضعاف ما ظهرَ خلالَ العقود الثمانية السابقة.

وعلى الرَّغم من ظهورِ بعض الرحلات في العالم العربي في وقت مبكِّر عقبَ الخلافة العبَّاسية إلَّا أنَّ هذا الفنَّ الأدبيَّ الخاصَّ من الرِّحلات لم يُكتبْ لهُ الشيوعُ في المجتمعات الإسلامية إلَّا في عصورٍ متأخرة ، فمعَ كثرة تردُّد العلماء والمفكرينَ من شبه القارَّة الهنديَّة على البلاد المقدسة للحجِّ والزيارة ، إلَّا أنَّنا لا نجدُ أحدًا من أولئك الرَّحالة دوَّنَ رحلَتَهُ قبلَ أواخرِ القرنِ الثَّامن عشر الميلادي. فظهرت معظمُ هذه التآليفِ خلالَ الاحتلالِ البريطاني للهند.

وَلا يَتَجاوزُ عددُ رحلات الحجِّ التي أُلِّفَتْ في الهندِ خلالَ القرنِ التاسع عشر الميلادي عشرينَ رحلةً ظَهَرَ مُعظمُها في العقدينِ الأخيرين منه.

ومن رحلاتِ الحجِّ المعروفةِ التي وَصَلَتْ إلينا من هذه المدَّة : رحلةُ ماه مَغْربْ المعروف بِكَعْبَه نُمَا (قمر المغرب المعروف بمرآة الكعبة) عامَ ١٢٨٨هـ لمحمد مَنْصِبْ عَلي خانْ ،

(١) النواب مصطفى خان بن النواب مرتضى خان شيفته (١٨٦٩م) . ولد وتوفي في دلهي، من كبار شعراء الأردية، له ديوان بالأردية والفارسية. انظر : أردو أدب كي تاريخ ٧٨٣، وسوانحي إنسايكلوبيديا ٣٧٨، **وأردو مين حج كي سفرنامي** ٥٥.

(٢) من كبار أدباء اللغة الأردية وصاحب مؤلفات كثيرة، وله ديوان شعر بالفارسية والأردية. تعد رحلته أولى رحلات الحج الهندية باللغة الأردية، إلا أن معظم أجزاء هذه الرحلة ما زالت مفقودة. انظر: **أردو مين حج كي سفرنامي** ٥٩.

(٣) النواب سكندر بيغم بنت النواب نظر محمد خان (ت ١٨٦٨م)، ملكة بوفال من ١٨٤٤م إلى ١٨٦٨م. كتبت رحلتها بالأردية، وما زال الأصل الأردي مخطوطًا في مكتبة رضا برامفور دون أن ينشر، إلا أن ترجمتها الإنجليزية نشرت عام ١٩٠٦م. انظر : **اردو سفرنامي أنيسوين صدي مين** ٧٥، **وأردو مين حج كي سفرنامي** ٦٤ .

وسِرَاجُ الحَرَمَيْن عامَ ١٢٩٠هـ للشيخ تَجَمُّلْ حُسَين ، وسَعَادَت دَارَيْنْ (سَعادةُ الدَّارين) عامَ ١٢٨٨هـ للْحكيم فَرِيْدُ الدين ، وسَفَرْنَامَه حَرَمَيْنْ (رحلةُ الحرمين) عامَ ١٢٨٩هـ لمحمد زَرْدَارْ خَانْ ، ومَنْبَعُ الحَرمين عامَ ١٨٨٢م لمحمد بَخْشْ القَادْري ، ومُفِيْدُ الدارين عامَ ١٨٨٢م لمحمد آيَـزْدْ بَخْشْ ، وتَبْصِرَةُ المؤمنين بِلَقَب رفيـق الزائرينَ عامَ ١٢٩٦هـ لمحمد علي الجَوْنْفُوْري ، ووَكِيلُ الغُرَبَاءِ عامَ ١٢٩٩هـ لوزير حسين، ورَهْنُمَائي حَجْ (دليلُ الحجِّ) عامَ ١٨٨٤م لبَرْكَتْ علي، وسَفَرْنَامَه عَرَبْ (رحلةٌ إلى بلادِ العرب) عامَ ١٣٠٨هـ لمحمد حفيظ الله، ورِسَالَه حَجْ (رسالةُ الحج) عامَ ١٨٩٢م، لعليم الدين (١)، وسياحةُ الحرمين بزيارةِ الثَّقَلَين عامَ ١٨٩٣م لدِلَاوَرْ عَلي، وَسَفَرْنَامَه حِجَازْ (رحلةٌ إلى الحجاز) عامَ ١٨٩٥م لميرزا عرفان علي بَيْغْ. (٢)

وتُقَـدِّمُ هـذِهِ الرحلاتُ لقُرَّائها تمثيـلاً ذاتيًّا لمؤلفيهـا في تَفاوتِ انتماءاتِهـم وميولِهم وخلفيَّاتهـم الفكريـةِ والسياسيةِ والاجتماعيةِ ؛ فمنهـم علماءُ الدِّينِ والدُّعـاةُ مثلُ الشيخِ صديـق حسن خَـان (١٨٧٢م) (٣) في رحلتـه (رحلةُ الصديق إلى البيـت العتيق) ، ومنهم الأمـراء والحـكام مثل الملكة سكندر بيْغَمْ في رحلتها تاريخْ وقائـع حَجْ (تاريخُ وقائع الحجِّ، ١٨٦١م) ، ونَوَّاب ولاية رَامبُور كَلْب علي خانْ في رحلته عام ١٨٧٢م (٤)، ومنهم الشَّخصيَّاتُ الأدبيـةُ مثلُ عبدِ الماجِـد الدَّرِيَابَادي (٥) في رحلته سَفَرِ حِجَازْ (رحلـةُ الحجاز، ١٩٢٩م) ، وشَورِشـ الكشمـيريُّ في رحلته شَـبْ جَائي كِهْ مَـنْ بُـوْدَمْ (ليلةٌ في مجلسٍ روحـانّي، عامَ

(١) انظر : **أردو سفرنامي أنيسوين صدي مين** ٦٦

(٢) انظر : **أردو مين حج كي سفرنامي** ٧١ **وأردو أدب مين سفرنامه** ١٥٧ و٤٧٠.

(٣) صديق حسن بن أولاد حسن بن أولاد علي الحسيني البخاري القنوجي (١٣٠٧هـ)، مفسر، محدث، فقيه، مؤرخ، وأديب هندي، صاحب مؤلفات كثيرة بلغ عددها ٢٢٢ مؤلفا ما بين صغير وكبير، من كتبه : عون الباري، فتح البيان، نيل المرام، أبجد العلوم وغيرها. سافر للحج سنة ١٢٨٥هـ. انظر: **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام** ٨: ١٢٤٦.

(٤) النواب كلب علي خان بن النواب يوسف علي خان (١٨٨٧م)، أمير ولاية رامفور في شمال الهند من ١٨٦٥م إلى ١٨٨٧م. انظر : Dictionary of Indian Biography 349.

(٥) عبد الماجد بن عبد القادر الدريابادي . ولد عام ١٨٩٢م في بلدة درياباد بولاية أوترابراديش، وتوفي عام ١٩٧٧م في لكناو . أديب، شاعر، ناقد، محقق، مفسر، مترجم، رحالة. انظر : **عبد الماجد دريابادي : أحوال وآثار** ٣٠ و ١٤١، **وتاريخ أدب أردو** ٢ : ٩٣٥، **ونقوش رفتكان**، ٧٩.

١٩٦٧م) [١]، ومنهم الشعراء مثلُ الشَّاعرِ شِيفْتَه ﴿ بَرَاهِ آوُرْدْ (في سبيل الرشاد، ١٨٤١م).

وينتمي عددٌ جمٌّ من كتَّابِ هذهِ الرَّحلاتِ إلى الأُسرِ التي تأثَّرتْ بالمؤسَّساتِ الحكوميَّة في ظلِّ الاحتلالِ البريطاني، مِن الأثرياءِ والإقطاعيين المتضلِّعينَ من الأدبِ الأُرْدِيِّ، ومِن الأُسرِ التي لها صلاتٌ بالخدماتِ والوظائفِ الحكوميَّة، بينما ينتمي بعضُهم إلى خلفياتٍ أخرى[٢].

هــذا وقد تركتْ بعضُ النِّساءِ الهنديَّاتِ رحلاتٍ مكتوبــةً، إلَّا أنَّها قليلةٌ مقارنةً بنصيبِ الرجــالِ، فمنهــنَّ أمة الغنــي نور النساء [٣]، فقــد حجت قبل حوالي قــرن في عام ١٩٠٩م، وألفت رحلتها (سَفَرْنَامَهْ حجازْ، شامْ وَمصرْ) (رحلةٌ إلى الحجازِ والشام ومصرَ)، وراحيل شيروانيــة [٤]، حجت عام ١٩٢٣م مع أخيهــا وألفت رحلتها (زَادُ السبيــلِ)، ورحلةُ صَادِقَهْ ذَكي [٥]: (خَيْمَوْ كَي شَهَرْمي) (في مدينةِ الخيَام) عام ١٩٩٧م. وفي أواخرِ ثمانينياتِ القرنِ المنصــرم نشــرَ الكاتبُ الهندي المشهورُ إمــدَاد صابري الجزءَ الأوَّلَ مــن مجموعةِ رحلاتهِ المقترحِ نشرُها ضمنَ مجموعةِ كتاباتِ الحجِّ التي أُلِّفَت بأقلامِ كُتَّابِ العائلةِ نفسِها [٦].

وغنيٌّ عن القولِ أنه يصعبُ الجزمُ بالإحاطةِ بكلِّ الرحلاتِ؛ لأنَّه من المؤكَّد أنَّ هناكَ عددًا مِن الرسائلِ ومذكراتِ الرحلاتِ غيرِ المطبوعةِ لا يعرفُها إلَّا أفرادٌ من أُسَرِ مؤلفيها وخاصَّةِ أصدقائهم.

(١) عبد الكريم شورش الكاشميري (١٩٧٥م). ولد عام ١٩١٧ في لاهور. أديب وشاعر ومصنف معروف، من كتبه: ميان افتخار الدين، وفن خطابت، وسيد عطاء الله شاه بخاري، وأس بازار مين. انظر: **جديد شاعري** ٥٠٨، **ونقوش رفتكان**، ٦٢.

(٢) انظر: Islamic Contestations 296.

(٣) أديبة وكاتبة أردية. ولدت في حيدر آباد من عائلة تفتخر بكثرة الأدباء فيها. طبعت رحلتها عام ١٩٩٦ وتشتمل على ٧٦ صفحة. انظر: **أردو مين حج كي سفرنامي**، ١٣٥.

(٤) راحيل شيروانية بنت الحاج محمد موسى خان الشيرواني، من إحدى الأسر الثرية في علي جرة. انظر: **أردو مين حج كي سفرنامي** ١٦١.

(٥) أديبة وكاتبة أردية، من مؤلفاتها: بروفيسر محمد مجيب، وأدب، خواتين وسماج. انظر: **أردو مين حج كي سفرنامي** ٣٥٩.

(٦) انظر: Islamic Contestations 296.

هذا وقد أصبحت الكتاباتُ عن رحلاتِ الحجِّ ظاهرةً جديدةً تشتركُ في دوافعِ وسياقاتِ كتاباتِ الرحلاتِ الأخرى التي برزَت في تلكَ المدَّةِ لأهدافٍ ومقاصدَ غيرِ الحجِ والزيارة. وقد ارتبطَ ازدهارُ دوافع كتابة رحلاتِ الحجِّ بالمستجدَّاتِ والتطوراتِ في عالم الطباعةِ والنشرِ، وبدرجةِ الاتصالِ بالاحتلال البريطاني؛ للاستفادة من تطورِ وسائلِ النَّقلِ الحديثة التي سهلت التنقُّلَ والارتحالَ، وجعلتِ الكتَّابَ يكتشفونَ آفاقًا جديدةً وطرائقَ تفكيرٍ حديثةً.

تشتركُ الكتاباتُ في رحلاتِ الحجِّ في كثيرٍ من خصائصِها مع غيرِها من الأنماطِ الأدبيَّة الجديدة التي تتيحُ للكاتبِ فرصةً للكشفِ عن شخصيتِه، وتعدُّ – في بعض جوانبها – نوعًا من تمثيلِ الذَّاتِ، وتركِّزُ على الخبراتِ والانطباعاتِ الفردية؛ شأنَ كثيرٍ من السِّيرِ الذَّاتيةِ التي ظهرت في المدَّةِ نفسِها. ولم يكتفِ المؤلفون بالمراقبَةِ والرَّصدِ، بل شاركوا بنشاطٍ وحيويَّةٍ فيما رَأوه ووصَفوهُ من شعائرِ الحجِّ وأحوالِ الحجَّاج.

يغلِبُ على معظمِ رحلاتِ الحجِّ أن تتَّشِحَ بـرداءِ الأدبِ الرِّوائي والمسرحي؛ فتأخذُ ما في المسرحيَّـةِ من حوارٍ، وما في الروايةِ من وصفٍ وأحداثٍ، وتتشابهُ معظمُ رحلاتِ الحجِّ في موضوعاتِهـا، فتتناولُ في الغالبِ الأعمِّ: بدايةَ الرِّحلـةِ، واللحظاتِ الروحانيَّةَ، والموجةَ الغامرةَ من الشَّوقِ لرؤيةِ الديار المقدَّسةِ، ووصفَ الرحلَةِ والطَّريقِ، والسُّرورَ بالوصولِ إلى الديارِ المقدَّسةِ، والمشاعرَ عند رؤيةِ الحرمين الشريفين، ثمَّ وصفَ رحلةِ العودة.

شهِـدتْ العقودُ الأخـيرةُ بعضَ الكتاباتِ عن رحـلاتِ الحجِّ التي كتَبَهـا أدبَاءُ بارزونَ ونالـت شعبيةً واسعةً، واتخـذت أساليبَ أدبيَّةً جديدةً. فقد دافـعَ الرِّوائيُّ المشهورُ ممتازُ مفتـي في مقدِّمـةِ رحلته عن هذا النَّوعِ مـن الكتابةِ بأنَّه لا يُكتبُ للترفيـه، ولا للتحقيقِ في مسائلِ الفقه والعقيدة، وإنَّما الغرضُ الأساسُ من الكتابةِ توثيقُ السِّيرةِ الذَّاتيَّةِ للكاتبِ.

وقد يربِطُ بعضُ الكُتَّابِ بعضَ الأحداثِ والمشَاهدَاتِ في رحلتِه بواقعِ الحالِ في الهندِ في عهدِ الاحتلالِ؛ فيتناولُ أحداثَ عصرِهِ داعيًا إلى الإصلاحِ والتطويرِ، فهذا ميرزا عرفَان

علـي بيك [1] أحدُ الرَّحَّالة في أواخرِ القرنِ التَّاسعِ عشر يتناولُ في رحلته سَفَرْنَامَهْ حجازْ (رحلـةُ الحجاز) مجموعةً من القضايا السياسيةِ والاجتماعيَّةِ، ودعا الحكومةَ إلى العملِ على تحسينِ النِّظام وتوفيرِ الحمايةِ والرَّاحةِ والنظافةِ للمواطنينَ.

واصطَبَغـتْ بعضُ رحلاتِ الحجِّ بصبغة دينيَّـة عقديَّة طائفيَّة بحتة، وكانَ منبرُ الحج خـيرَ سبيـلٍ للدعوةِ والدعايةِ لتلـك الأحزابِ؛ فتجـدُ كُلاًّ منَ الصُّوفيِّ والسُّنـيِّ والشِّيعيِّ يسلكونَ مسالكَ متعدِّدةً للدعايةِ وتبيانِ آرائهم فيما يعتقدونه ويدعونَ إليه.

وقـد زادَ من أهميَّةِ بعضِ رحلاتِ الحـجِّ الهنديَّةِ القديمةِ وجودُ رسوم وخطَط للمعالم الدِّينيَّةِ، كما جاءَ في رحلَة النواب محمد عمر علي خان –الذي سبق ذكرهُ–، ورحلَة (وكيلُ الغربـاء) لوزيرِ حسين [2] حين رسـمَ المسجدَ الحرامَ، ورحلـة السُّلطان داود (١٩٦٣م) حينَ رسمَ مخطَّطًا دقيقًا لأرضِ المسجدِ الحرام، ورحلَة (سَفَرُ الحرمين الشريفين) عام ١٩١٥م لمحمد عبدِ الرحيم نقش بندي [3] حينَ رسم وقوفَ النَّاسِ بعرفةَ.

وعلـى الرُّغـم من أنَّ كثيرًا مـنَ المؤلِّفينَ الذيـنَ أدركوا بداياتِ التصويـرِ الضَّوئي لم يكونـوا يستحسِنـونَ عرضَ صورِهم التـي التقطوها في الديار المقدَّسـة ؛ خوفًا من إيذاءِ مشاعرِ الذين يستنكرونَ التصويرَ في ذلك الوقتِ – على الرغم من ذلكَ – جاءت رحلاتٌ عـدةٌ حديثةٌ بصُـورٍ فوتوغرافيَّةٍ معبِّرةٍ، تـؤرِّخُ للرحلةِ وكاتبِها، وتقـدِّمُ شواهد على حالِ الحرمينِ والأماكنِ المقدَّسةِ.

إن رحـلاتِ الحجِّ الهنديةِ مصدرٌ مُهمٌّ من مصادرِ تاريـخِ الجزيرةِ العربيةِ؛ بحيثُ لا تَقِلُّ أهميتُها عن وثائقَ تاريخيةٍ حافلةٍ بالمعلوماتِ القيمةِ حولَ الأوضاعِ الدينيةِ والتعليميةِ

(١) ألف رحلته في عام ١٨٩٥م. انظر : **أردو مين حج كي سفرنامي** ٩٣.

(٢) وزير حسين الرضوي (١٨٨٦م)، خرج للحج عام ١٢٩٩هـ وألف رحلته عام ١٣٠١هـ. انظر: **أردو سفرنامي أنيسوين صدي مين** ٩٢.

(٣) محمد عبد الرحيم نقش بندي من ولاية تامل نادو بجنوب الهند، كان مراقبًا مساعدًا في الحكومة الإنجليزية، طبعت رحلته عام ١٩١٣م من مطبعة (شوكت الإسلام) بمدينة بنقلور.

والاجتماعيةِ والاقتصاديةِ والسياسيةِ السائدة في مكةَ والمدينةِ وسائرِ مُدُنِ الحجازِ في عصرِ مُؤلِّفيها، علمًا أنَّ كثيرًا منها سَبَقَ تأليفُها تأسيسَ المملكةِ العربيةِ السعودية.

أما الحالةُ الدينيةُ والعلميةُ للحجازِ، فَتُحَدِّثُنا هذه الرحلاتُ عن علماءِ الدينِ والمشايخِ الذين كانتْ تُعْقَدُ حلقاتُهم ومجالسُهم العلميةُ في مكةَ والمدينة [1]، وتَصِفُ لنا المكتباتِ الشخصيةَ والحكوميةَ، مثلَ مكتبةِ الشيخ محمد نصيف في جدة [2]، ومكتبةِ الخليفةِ العثمانيِّ عبدِ الحميدِ خان في مكةَ المكرمة [3]، كما تَصِفُ حالَ اللغةِ العربيةِ فَتُفيدُنا بِمَدَى شُيوعِ اللغةِ العاميةِ في مدنِ الحجازِ آنذاكَ؛ من ذلك قول عبد الماجدِ الدريابادي في رحلته (١٩٢٩م) مُشيرًا إلى ذلك:

(إنَّ عددَ مَنْ يَتَحَدَّثُ بالفصحى مِنْ أهالي جدةَ قليلٌ جداً، بحيثُ لا يَتَجاوَزُ اثنين: أحدُهُما الشيخُ محمد نصيف والثاني الحاجُّ عبدُ الله زينل). [4]

ويقول خَوَاجَة حَسَنْ نِظامِيّ في رحلتِهِ (١٩١١م) متحدثًا عما رآه في المسجدِ النبوي من الطقوسِ الدينيةِ:

(يَصْعَدُ المؤذِّنونَ مناراتِ الحرمِ عَقبَ كلِّ صلاة، حيثُ يُصلونَ على النبيِّ بأعلى أصواتِهم، وَيَتْلُونَ القرآنَ الكريمَ، وهذا عملٌ مُسْتَحْسَنٌ يُؤَثِّرُ على كلِّ مَنْ في المسجد، وَتَعْجِزُ الألفاظُ عَنْ وصفِ الروحانيةِ والمشاعرِ الطيبةِ التي تَبْعَثُها وتُوقظُها أصواتُهم في نُفُوسِ السامعينَ، وَيُواصِلُونَ التلاوةَ والصلاةَ على النبي حتى أثناء صلاة الليلِ، ولا نرى مثلَ هذا المنظرِ في أيِّ مكانٍ آخرَ ما عدا المدينةِ المنورةِ.) [5].

(١) انظر : سفرنامه حجاز، مصر، شام، فلسطين ولبنان ٢٣٦.
(٢) انظر : سفر حجاز ٧٩.
(٣) انظر : سفرنامه حجاز ٩٠.
(٤) سفر حجاز ٨٢
(٥) سفرنامه حجاز، مصر، شام، فلسطين ولبنان ٢١٧

أمـا الحالـةُ الاجتماعيـةُ، فَتُفيدُنا هـذه الرحلاتُ بما شـاعَ في الحجازِ مـن الملابس والأزيـاءِ بمُخْتَلـفِ أنواعها الرجالية والنسائية، وتصفُ أنـواعَ المأكولاتِ والمشروباتِ التي كانتْ شائعةً آنذاكَ، مثلَ أنواعِ الخُبْزِ والشَّاي الأخضرِ الذي كانوا يحبونهَ . يقول القاضي سليمان سلمان المنصوربوريُّ في رحلته (١٣٣٩هـ):

(العـربُ حَسَنُو المَلْبَسِ، ويحبونَ النَّظافةَ. مَلابسُهُم في العادة نظيفةٌ، بيضاءَ، مَكْويَّةٌ، تُخْلَـطُ بلونٍ غامقٍ مثلُ الأزرقِ أوالعُنَّابـيِّ أوالقرْمزيِّ، تَغْسلُهـا وَتَكْويْها النساءُ في البيوتِ بأنفسهنَّ؛ وهذا من الشّيَم التي يجب أن تَتَخَلَّقَ بها بناتُهم.

وهُم يُكْثرُون شُرْبَ الشَّاي، فالمقاهي كثيرةٌ ومنتشرةٌ داخلَ المدنِ وفي ضَواحيها.) [١].

أمـا الحالـةُ الاقتصاديةُ، فنجـد في هذه الرحلاتِ ذكـرَ أثرياء الحجـاز ونشاطاتهم التجاريةِ، وذِكْرَ جُودِهم وكَرَمِهم وحفاوَتِهم بضيوفِ الرحمنِ على وجه خاصّ، كما تَصفُ لنـا العُمْلاتِ الشائعةَ آنذاكَ في الحجاز، والأسواقَ وأنـواعَ البضائعِ التي كانتْ تُباعُ فيها. يقولُ المنصوربوريُّ في رحلته:

(سـوقُ السُّويقـةِ مَسقُوفَـةٌ بألـواحٍ من الخشـبِ ترتفعُ حـوالي ثلاثينَ قدمًـا، ومع أن مساحتها ضيقةٌ فإنَّ تجارتَها مُنْتَعِشَةٌ، وفيها مَتَاجِرُ الأثرياءِ. ومحَلَّاتُها حافلةٌ بالمُسْتَوْرَداتِ الأوروبيـةِ، إلى جانـبِ القماشِ الشاميِّ الجيد وغـيره من الأشياء. تُوَجَـدُ أسواقُ اللُّحومِ والخُضارِ والفواكه على حِدَة. وجميعُ المأكولاتِ متوفرةٌ بقدرٍ كافٍ.) [٢].

تُلْقِي هذه الرحلاتُ الضوءَ على الأوضاعِ السياسية التي كانتْ تَشْهدها منطقةُ الحجازِ في تلك الآونة، فَنَجد فيها ذكْرَ الحُكامِ والأمراءِ والولاةِ، والخَدَمَاتِ التي كانوا يقدمونها للحجاجِ، كمـا تَصِفُ لنا الحالةَ الإداريةَ لمدنِ الحجازِ [٣]، وتحـدثَ مؤلفو عددٍ من هذه الرحلاتِ إلى

(١) سفرنامه حجاز ٤٨.

(٢) سفرنامه حجاز ٤٧.

(٣) انظر: سفرنامه حجاز، مصر، شام، فلسطين ولبنان ٢٣٤ وسفر حجاز ٨١.

العلماءِ والأعيانِ الموجودين في الحجاز حول القضايا السياسية، وأشاروا إلى ذلك في رحلاتهم، فنَجدُ فيها آراءهم ومواقفهم إزاءَ بعض القضايا السياسية في تلك الفترة (١) .

رحلة زادِ غريب

الكاتب:

أَلَّفَ رِحْلَةَ (زَادِ غَرِيْب) النوّابُ مُحَمَّد عُمَر عَلي خَان بن النَّوَّاب أَسَد عَلي خَان، أميرُ إمَارَة (بَاسُوْدَه)، الإمَارَة الهِنْديَّة الإسْلَاميَّة الَّتي كان قَدْ أَسَّسَهَا النَّوَّابُ إحْسَانُ الله خَان بنُ مُحَمَّد دلير خَان الأَفْغَانيُّ الأَصْل من سُلَالَة بَارَاكْزَائِي فيْرُوْزْ كهَيْلْ عَامَ ١٧٥٣م في وَسَطِ الهِنْدِ، بَيْنَمَا أَسَّس أَخُوْه الكَبِيرُ إمَارَةَ كُوْرَوَائِي جَنْبَ إمَارَةِ بَاسُوْدَةَ في المدَّقفسها.

امْتَدَّتْ إمَارَةُ باسُوْدَة عَلَى مسافة ١٠٤ كيلومترًا، وَضَمَّتْ حَوَالى ٢٣ قَرْيَةً. وتَسَلَّمَ النَّوَّابُ مُحَمَّد عُمَر عَلي خَان مَقَالِيْدَ الحُكْمِ من أَبِيْه عَامَ ١٨٦٤م، وَظلَّ مُسَيْطِرًا عليهَا حَتَّى وَفَاته عامَ ١٨٩٦م.

تَزَوَّج كَرِيْمَةَ الأَمير الكُوْرَوَائي مُحَمَّد مُظَفَّر خَان، وَرُزِقَ منْهَا وَلَدًا. خَلَفَه ابْنُه النَوَّاب حَيْدَر عَلي خَان فَيْرُوْز جَنْك، وَدَامَت هَذه الإمَارَةُ ستّيْنَ سَنَةً عَقِبَ وَفَاةِ النوَّاب عُمَر علي خَان؛ حَيْث انْحَلَّت وَانْضَمَّتْ إلَى حُكُوْمَةِ الهِنْدِ في عام ١٩٤٧م عقبَ استقلالِ البلادِ من سيطرةِ الإنجْلِيْز.

كَان النَّوَّاب عُمَر علي خَان كَثِيْرَ التَّرَحُّل مُوْلَعًا بالسِّيَاحَة، فَقَضَى جزءًا كَبِيْرًا من حَيَاته في السيَاحَة، وَأَلَّف كتَابًا عَن كُلِّ رِحْلَة قَام بهَا؛ بحَيْثُ بَلَغ عَدَدُ رِحْلَاته سَبْعَ رِحْلَات كتبَ عنها سبعَةَ كُتُب. وَممَّا يُمَيِّزُه أَنَّه فَاق مُعَاصرِيْه بالهِنْد من حَيْث كَثْرَةُ التَّأْلِيْف في فَن الرحْلَات. ويَشْمَل كِتَابُه (زَاد سَفَرْ) رِحْلَاته في مُخْتَلف المُدُن الهِنْديَّة مثْل كَلْكَاتَا وَلَكْنَاو وحَيدرآباد وَلاهَور. وسَافَر إلَى الحِجَاز ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَأَلَّف (زَادِ غَرِيْب) عَن رِحْلَاته في الجَزِيرَةِ

(١) انظر : سفرنامه حجاز، مصر، شام، فلسطين ولبنان ٢٣٢ .

العَرَبيَّـة وَالعـرَاق وَبلَاد العَجَم وَمصْرَ وَالشَّام عَامَ ١٨٨٠م. خَـرَج في رحْلَته الأَوْرُوبيَّة عَامَ ١٨٨٨م، وألَّـف (سَفَرْنَامَه آئينَه فرَنْك) عَن رحْلَاته في لَنْـدَن وَبَاريس وإيطاليا وسُويسرا وَتُرْكيَـا. وألَّفَ رحْلَتَه إلَى سيرلانـكا باسْم (سَفَرْنَامَه رَئيس)، وَرحْلَتَـه إلَى مَيَانْمَار باسْم (نيرَنْـك رَانْكُون)، وَرحْلَتَه إلَى الصّين باسْم (نيرَنْك صين). وسَافَـر إلَى أَوْرُبَّا مَرَّةً ثَانيَةً في عَام ١٨٨٩م، وَزَار مَوسْكو وَبُودابست وَبَلْغَرَاد وَبَلْجيكا وَأَلمانيا وَمُدُنًا أَوْربيةً أُخْرَى، وَأَلَّف (فَرهَنْك فرَنْك مَعَهُ آهَنْك فرَنْك). كَمَا أَلَّف رحْلَتَه إلَى إسْبَانيَا باسْم (قَنْد مَغْربي).(١)

يَبْدُو أَن النوابَ عُمَر علي خَان كَان قَد ابتُليَ في شُؤُون الحُكْم بَلَاءً عَظيْمًا، وَوَجَد نَفْسَه في غَمْـرَة الهمُوْم وَالأَحْـزَان، وَمَا لَاقَى السُّلْـوَانَ إلَّا في التَّنَقُّل وَالارْتحَـال، فَشَدَّ الرِّحَالَ، وَهَجَرَ الخلَّان، وَتنكَّرَ للحكم والجاه والمال، وَاعْتَرَف بذَلك في مُقَدِّمَة رحْلَته حَيْثُ قَال:

(كَـم عَانَيْـتُ من الهمُـوْم وَالبَلَابل، فَقَـد حَان الوَقْتُ لشَـدِّ الرِّحَال، وَجَـوْب الآفَاق؛ ليُخَفِّفَ ذَلك من أَحْزَاني، وَيُفَرِّجَ من هُمُومي وَأَشْجَاني.)(٢)

توفي النَّواب عمر علي خان عامَ ١٨٩٦م.

الرِّحْلَةُ:

هَـذَا الكتَابُ في وَصف رحْـلَات قَام بهَا مُؤَلِّفُهـا في بَعْض البلَاد العَرَبيَّـة وَالإسْلَاميَّة عَامَ ١٨٨٠م، وَالنُّسْخَةُ المَطْبُوْعَةُ الَّتي اعْتَمَدْنَاهَا لدرَاسَة هَذه الرِّحْلَة هي طَبْعَتُهَا الرَّابعَةُ المُنَقَّحَـةُ التـي قَام بنَشْرهَـا مُحَمَّد خَليْل بُلَنْد شَهْـري صَاحبُ مَطْبَعَة غُلْـزار مُحَمَّدي في مَديْنَـة مَيْرُوتْ بولَايَة أُوْتَـرَا بَرَادَيش في عَام ١٣١٣هـ بَعْد مَا ظَهَـرَتْ طَبْعَتُهَا الرَّابعَةُ قَبْلَ التَّنْقيْح في عَام ١٣١٢هـ من المَطْبَعَة نفسها.

تَحَـدَّثَ المُؤَلِّـفُ في هذا الكتاب عَن أَحْوَالِ عددٍ من الرِّحَـلَات الَّتي قَام بهَا في مُخْتَلف

(١) انظر ترجمته في: The Golden Book of India 62، وأردو أدب مين سفرنامه ١٥٧، وأردو سفرنامون كا تنقيدي مطالعة ١٢٥، وأردو سفرنامي أنيسوين صدي مين ٩٦، وأردو مين حج كي سفرنامي ٩٨.

(٢) زاد غريب ٣.

البــلَاد العَرَبيَّة، وَالأَمْصَــارِ الإسلامية، من أَمْثَالِ مَكَّةَ المُكَرَّمَــةِ وَالمَدِيْنَةِ المُنَوَّرَة، وَدمَشْق، وَعَدَن، وَجُــدَّةَ، وَبَيْت المَقْدس، وَكَرْبَــلاءَ، وَالنَجَف، وَالبَصْرَة، وَمِصْــرَ، وَالشَّام، وَمَدَائِنَ صَالِــح، وَمَدَافِــنِ الأَنْبِيَاءِ والشُّهَــدَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى رِحْلَاتِــه فِي بَعْضِ دُوَل آسيَا الوُسْطَى.

تَتَخَلَّلُ هذه الرحْلَةَ خَرَائِطُ لعَدد من الأَمَاكِنِ الَّتي زَارَهَا صَاحِبُهَا مِثْلُ خَرِيْطَة مَكَّةَ المُكَرَّمَة، وَالمَدِيْنَةِ المُنَوَّرَة، وَكَرْبَلاءَ، وَالقُدْسِ وَغَيْرِهَا. وَلَم يَقْتَصِرِ المُؤَلِّفُ فِي كِتَابه عَلَى رِحْلَةِ الحَج الَّتي تَشَرَّف بِهَا، بَل تَحَدَّث فِيْه عَن رِحْلَاته المختلفة فِي الأَقْطَار العَرَبِيَّة وَالإِسْلَامِيَّة الَّتي زَارَهَا.

اسْتَهَلَّ المُؤَلِّفُ كتابَه بِرِحْلَتِه للْحَجِّ تَيَمُّناً بِهَا، كَمَا قَال فِي أَوَّله:

(أَسْتَهِــلُّ هذا الكتــابَ بِرِحْلَةِ الحَجِّ تَيَمُّنًا بهــا وَاقْتِدَاءً بِصَنِيْعِ المُؤَلِّفِــيْنَ الَّذِيْن يَبْدَأُون جَمِيْعَ مُؤَلَّفاتهم بَل كُلَّ باب من أَبْوَابِهَا بِالبَسْمَلَة.) [1]

ويَقُوْل المُؤَلِّفُ مُشِيْرًا إِلَى الدَّوَافِعِ وَرَاءَ هَذه الرِّحْلَة:

(دَفَعَنِي إلى هَذَا التَّنَقُّلِ وَالارْتِحَالِ أَسْبَابٌ مختلفةٌ، يَعُوْدُ بَعْضُهَا إِلَى قلَّة العناية بشأني مِــن قِبَلِ أُوْلِي الأَمْــرِ وأصحابي، وَيرجعُ بعضُها إِلَى طبيعتي الَّتي تَجْنَــحُ لِشَيْءٍ من النفور وَالجَفْوَة، وبَعْضُها رَاجعٌ إلى سُوْءِ حَظِّي فِي الحَيَاة.) [2]

فيَبْــدُو أَنَّه حَاوَل الهُرُوبَ مِــن وَاقِع الحَيَاة وَاللُّجُوءَ إِلَى حَيَاة العُزْلَــة وَالاغْترَاب؛ كَأَنَّه ضَاقَتْ عليه الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ حُزْناً وَهَمًّا، فَبَدَأ يَبْحَثُ عَمَّا يُسَلِّي به فُؤَادَه، وَيُفَرِّجَ به عَن نَفْسه وَهُمُوْمه، وَمَا وَجَدَ ضَالَّتَه إلا فِي شَدِّ الرحال.

تَحْتَــوِي هَذه الرِّحْلَةُ عَلَى مُقَدِّمَة وَعِدَّة أَبْوَاب، وَالمُقَدِّمَــةُ تَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ فَصْلًا تحــدَّثَ فِيْهَــا الكَاتِبُ عَن المَوْقِــع الجُغْرَافِي لِلْبِلاد العَرَبِيَّــة، وَفَضْلها عَلَــى سَائِر أَمْصَار العَــالَم، وَسَبَــبِ تَسْمِيَتِهَــا بِهَــذَا الاســم، وَجِهَاتِهَا الأَرْبَــع، وَأَجْزَائِهــا وَأَهَــمّ مَنَاطِقِهَا

(١) المصــدر السابــق.

(٢) المصــدر السابــق.

وَقَبَائِلها، وَالمَسافات بَيْن مُخْتَلف بُلْدانها، وَأَشْهَر أنْهارها وَجبالها وَمُناخها وَمَعادنها وَثِمارها ومُسْتَورَداتها ومُصَدَّراتِها، وَتَحَدَّث في الفَصْل الأَخير عَن الخُلَفاء وَالأُمَرَاء العَرَب عَلَى مَدَى العُصُور.

عَقَدَ المُؤَلِّفُ البَابَ الأَوَّلَ بعُنْوَان: (أُمُورٌ يَجِبُ أَن يَنْتَبِه لَهَا الحَاجُّ) (١)، أَشَار فيْه إِلَى مَا كَان يُعَانِيه الحَاج من المشكلات في أَثْنَاء رُكُوبِه السَّفِيْنَة في زَمَنه. وَوَصَف في البَاب الثَّاني أَنْوَاعَ المَرَاكِب وَأَشْكَالَها المُخْتَلِفَة. وَفي الثَّالث أَشَار إِلَى المَسَافَة بَيْن مُومبَاي وَجَدَّة. ثُم أَوْرَدَ تَعْلِيْمات مُهِمَّةً للْحاجِّ قَبْلَ مُغادَرَته. ثُم شَرَعَ في ذِكْر أحوالِ الرِّحْلَة وَوَاصَل بَيَانَهَا حَتَّى نِهَايَتِها.

المَكانَةُ التَّارِيْخِيَّةُ وَالجُغْرافِيَّةُ للرِّحلَة:

تَتَمَيَّزُ هَذِه الرِّحْلَةُ باحْتوائِها عَلَى مَعْلُومات تارِيْخِيَّة قَد لا نَجِدُهَا في الرِّحْلات الأُخْرَى مِن العَصْر نفسه؛ فَوَصَف الكاتبُ المَشاعِرَ المُقَدَّسَةَ بِصِفَة عَامَّة وَالحَرَمَيْن الشَّرِيفَيْن بِوَجْه خَاصّ وَصْفًا مُفَصّلاً، وَرَسَم كُلَّ ما شاهَدَه في رِحابِها العاطِرَة؛ فَأَثْنَاء حَدِيْثِه عَن الكَعْبَة المُشَرَّفَة (حَسْبَما تَمَّ تَشْيِيْدُها في عَهْد الخَلِيفَة العُثْمَاني السُّلْطَان مُراد خَان وَمَا زَال مَوْجُودًا حَتَّى زَمَن الكاتب) ذَكَرَ المَسافَةَ مِن بابٍ إِلَى آخَرَ وَالمَساحَة مِن جِهَةٍ إِلَى أُخْرَى، وَوَصَفَ فِناءَ الحَرَم وَأَعْمِدَتَهُ وَأَرْوِقَتَه وَمَحارِيبَه وَمَناراته وَزَخارِفه، وَتَحَدَّثَ عَن الفَوانِيس وَالشُّمُوْع وَالقَنادِيْل المُوْقَدَة بداخِله وَذَكَرَ عَدَدَها.

وَعَلَى نَفْس المِنْوَال وَصَفَ الحَرَمَ المَدَنِيَّ، فَذَكَرَ عَدَد مَنارَاته وَأَسْمَاءَها، وَطُوْلَ المَسْجِد وَعَرْضَه من جِهَة إلى أخرى، وَوَصَف أَفْنِيَتَه وَمَحارِيبَه وَجُدْرانَه وَمَنابِرَه وَأَعْمِدَتَه وَقِبابَه، وَوَصَفَ الرَّوْضَةَ المُطَهَّرَةَ وَالأَضْرِحَةَ وَالقُبُورَ وَالمَساجِدَ الَّتي زَارَها دَاخِلَ المَدِيْنَة.

وَمِمَّا تَتَمَيَّزُ به هَذِه الرِّحْلَةُ اهْتِمامُ مُؤَلِّفِها بذِكْر المَعْلُومات الجُغْرافية والدِيمُوغرافِيّة لِلْمُدُن الَّتي زارَهَا، فَقَال مُتَحَدِّثًا عَن مَكَّةَ المُكَرَّمَة:

(١) زاد غريب ١٢.

(تَوَسَّعَ العُمْرانُ حَتَّى امتَدَّ إِلَى كُهُوْفِ بَعْضِ الجِبالِ)(١)

وأضافَ قائلًا:

(انْتَشَـرَ العُمْـرَانُ إِلَى جَبَلِ الكَعْبَة وَجَبَلِ عُمَر، وَقد عمَّرَ الناسُ جَبَلَ قُبَيسٍ أَيضًا حيث وصلتْ منازلُهم إلى القَلْعَة شَرْقًا وجُنُوْبًا) (٢)

وَقَال عَن مَدِيْنَة جُدَّة:

(هَذِه مَدِيْنَةٌ صَغِيْرَةٌ يَسْكُنُهَا حوالي خَمْسَةَ عَشَرَ أَو عِشْرِينَ ألف نَسَمَةٍ)(٣)

وَقَال مُتَحَدِّثا عَن مَدِيْنَة عَدَن:

(يَبْلُغ عَدَدُ سُكَّانها مَا بَيْن أَرْبَعَةٍ أوخَمْسَةِ آلَاف نَسَمَة) (٤).

فهَـذه الرِّحْلَةُ حَافلَةٌ - مثلُ الكثير من الرّحلات - بِمَعْلُوْمَات جُغْرَافيَّة لِلْمُدُن وَالقُرَى وَالبُلْـدَان وَالأَمَاكِـن الأُخْـرَى الَّتـي زَارَهَا مُؤَلِّفُهَـا، وبَعْضُ المَعْلُوْمَـات الجُغْرَافيَّة الَّتي تَضَمَّنَتْهَـا هَـذه الرِّحْلَةُ ذَاتُ شَأْنٍ وَأَهَمِّيَّـة؛ بِحَيْثُ إِنَّ كَثِيْرًا من المَعَـالم التارِيْخيَّة الَّتي وَرَدَ ذِكْرُهَـا فِي هَذه الرِّحْلَـة قَد طَال بها الزَّمَانُ، وَعَبَثَتْ بهَا الأَيَّـام، فَذَكر فِيْهَا المؤلفُ المَسَاجِـدَ الَّتي صَلَّى فِيْهَـا، وَتَحَدَّثَ عَن المَدَافِن وَالأضرحة الَّتي زَارَهَا فَأَشَارَ إِلَى مَدْفن السَّيِّـد أَبِـي بَكْـر العَيْدَرُوْس فِي عَدَن (٥)، وَإِلَى قَـبْر حَوَّاءَ -عليهَا السَّـلامُ- بِجوَار قَلْعَة مَدِيْنَة جَدَّةَ (٦)، كَمَا تَحَدَّثَ عَن الأَسْوَاق والأحياء الَّتي زَارَهَا فِي مَكَّة وَغَيْرِهَا من المُدُن. وَذَكَـرَ المَنَازِلَ الَّتي اجْتَازَهَا بَيْن مَكَّةَ وَالمَدِيْنَة، وَالمُـدَّةَ الَّتي اسْتَغْرَقَهَا قَطْعُهَا، وَوَصَفَ مَا بهَـا مِـن الأَسْوَاقِ والمَتاجِرِ وَالحُصُـوْنِ وَالآبَارِ الَّتِي لَم يَبْقَ لِكَثِيْرٍ مِنْهَـا إِلَا ذِكْرٌ وَبَيَانٌ فِي بُطُوْن كُتُبِ التَّارِيْخ.

(١) زاد غريب ٢١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) زاد غريب ١٨.

(٤) زاد غريب ١٧.

(٥) انظر: المصدر السابق.

(٦) انظر: زاد غريب ١٨.

المجتمعُ الحجازيُّ:

اهتمَّ الكَاتِبُ بتَصْوِيْر الحَياة الثَّقافِيّة للْمَناطِق وَالْمُدُن الَّتِي تَحَدَّثَ عَنْها فِي رِحْلَته ولو كان ذلك قَلِيْلاً. وَمن ذَلك –عَلَى سَبِيل المِثَال– مَا تَحَدَّثَ عَن مَلَابِس الرِّجَال وَالنِّسَاء الرَّائِجَة فِي الحِجَاز فِي ذَلك العَصْر؛ فَذَكَر عَقْبَ حَدِيْثه عَن الكَعْبَة الْمُشَرَّفَة الجُبَّةَ وَالصَدْرِيّةَ وَالسِّرْوَالَ وَالحزامَ وَالتِّكَّةَ وَالشَّالَ وَغَيْرَهَا من مَلَابِس الرِّجَال [1]، وَوَصَف شَتَّى أَنْوَاعهَا وتَصَامِيمهَا الشَّائِعَة آنَذَاك. كَمَا ذَكَر الْمُدَوَّرَة وَالقَمِيْص وَالصَدْرِيّة وَالبُرْقَع وَالْمُلاءَة وَغَيْرَهَا من مَلَابِس النِّسَاء. وَتَحَدَّثَ عَن حُلِي النِّسَاء وَزَخَارِفهن. [2]

قَال وَاصِفًا مَلَابِس البَدْو: (يَكْتَفُوْنَ بإِزَار وَاحِد، وَيَضَعُ بَعْضُهُم مِنْدِيْلا عَلَى رُؤُوسِهِم. مُعْظَمُ مَلَابِسِهِم فَضْفَاضَةٌ، وَيَشُدُّون حزَامًا حَوْل الخَاصِرَة.) [3]

وَتَحَدَّث عَن المكاييل وَالأَوْزَان الرَّائِجَة فِي تلْك الأَيَّام فِي الحِجَاز بِمُخْتَلَف أَنْوَاعهَا وَأَشْكَالهَا، كَمَا وَصَف الظُّرُوْفَ وَالأَوَاني المتداولَة فِي مَكَّة وَالمَدِيْنَة وَقْتَئِذ؛ فَذَكَر من الظُّرُوْف الكنَاني وَالقلَالَ وَالإبريقَ والذورقَ والزَّمْزَمِيَّةَ المَخْرُوطِيَّةَ الشَّكْل وغيرها. [4]

لَا نراهُ يَتَحَدَّثُ عَن الحَالَة الاجْتِمَاعِيَّة للْمُجْتَمعَات الَّتِي تَفَاعَل مَعَهَا فِي أَثْنَاء رِحْلَته فِي الحِجَاز، إلَا مَا تَحدَّث قَلِيلاً عَن حَياة البَدْو؛ فَوَصَف طَبِيْعَتَهُم وَمَلامحهم وَخِصالهم وَجُوْدَهُم وَكَرَمَهُم، وَأشار فِي رحلته إلَى نظامهم الاجْتِمَاعي فقال:

(تَقْطُن قَبائِلُهُم فِي أَماكنَ مُتَفَرِّقَة، مثْلُ قَبِيْلَة حَرْب القَاطِنَة فِي مِنْطَقَة بِئْر عَبَّاس وَوَادي الصَفْراء وَرابغ عَلَى شَواطِئ البَحر، وَقَوْمُ الجَبَّارِينَ [5] القاطِنِيْنَ فِي أَطْراف القَضِيْمَة وَخُلَيْص) [6].

(١) انظر: زاد غريب ٢٧.

(٢) انظر: زاد غريب ٢٨.

(٣) انظر: زاد غريب ٤٣.

(٤) انظر: زاد غريب ٢٩.

(٥) هكذا بالتشديد، ولعلها: الجِبَارين، بالتخفيف، وهم فخذ من مطير.

(٦) انظر: زاد غريب ٤٣.

حَـاوَل الكَاتِـبُ من خلَال رحْلَتِـه إطلاعَ القَارئ عَلَـى مَا شَاع بَيْن أَهَـالي الحجاز من الشَّعَائِر وَالطُّقوس الدِّيْنيَّة في تلك الأَيَّام، فَأَشَار إلَى مَا كَان شَائعًا بَيْن أَهَالي مَكَّة وَالمَديْنَة مِـن عبَـادَة القُبُوْر وبنَاء القبَاب فَوْقَهَـا وَتَشْيِيْد الأَضْرحَة وَزِيَارَتهَـا، فَذَكَر ضَرِيْح الشَّيْخ مَحْمُوْد قُرب مَكَّة [1]، وَوَصَف القُبَب فَوْق بَعْض القُبُوْر في جَنَّة البَقِيع [2]، وَذَكَر قَبرَ الشَّيْخ زَكِيِّ الدِّيْن ابْن الإمَام جَعْفَر الصَّادق قُرْبُ المَدِيْنَة [3].

وَأَشَار إلَى بَعْض العادات وَالمَراسم الدِّيْنيَّة الشَّائعَة آنَذَاك؛ فَتَحَدَّثَ عَن مَوْكِب شَرِيْف مَكَّة حين قَدمَ مَكَّة المُكَرَّمَة في العَاشر من شهر ذي الحجَّة مَع كسْوَة الكَعْبَة ليَكْسُوهَا إيَّاهَا بتِلْـك المُنَاسَبَـة [4]. وَأَشَار إلَى الطُّقُوس الرَّائجَة آنَذَاك لزِيَارَة الرَّوْضَـة، فَقَال في أَثْنَاء حَديْثه عَن الرَّوْضَة المُطَهّرَة :

(وَطَرِيْقَـةُ زيارتها أن الزّائر يرتَدي ثَوْبَ الخَدَم، وَيَأْخُـذ شَمْعَةً بيَده، وَيَقِفُ بكُل أَدب وَاحْترام، فلَا يَلْتَفتُ يَمِيْنًا أَو يَسَارًا، وَلَا يَمَسُّ القَبْرَ المُقَدَّس بيَده) [5].

وَممَّـا تَجْدرُ إلَيْه الإشَارَةُ أنه يذكرُ الأَشْيَاءَ الَّتـي كَان يَتَبَرَّك بهَا الحُجَّاج آنَذَاك، مثل ميَـاه الآبَار السَّبْع وَتُرَاب المَقَابـر وَعُوْد الضَّرَائح وَشَمْع المَقَابر وَالمياه الَّتي كانتْ تُغْسَلُ بهَا المَقَابرُ وَقُماش الغلاف وَتُرَاب الشّفَاء وَالحنَّاء وَمَا إلَى ذَلك [6].

---

(١) انظـر : زاد غريـب ١٩.
(٢) انظـر : زاد غريـب ٣٨.
(٣) انظـر : زاد غريـب ٣٩.
(٤) انظـر : زاد غريـب ٢١.
(٥) انظـر : زاد غريـب ٣٧.
(٦) انظـر : زاد غريـب ٤٠.

المصادر والمراجع

١- أردو سفرنامــون كا تنقيــدي مطالعــة (دراســة نقديــة للرحــلات الأرديــة) . د. خالد محمــود، مطبعة (Maktaba Jamia Limited)، نيودلهي، ١٩٩٥م.

٢- أردو سفرنامــي أنيسويــن صــدي مين (الرحــلات الأردية في القــرن التاسع العشر الميــلادي) . قدسية قريشي، مطبعة (Maktaba Jamia Limited)، نيودلهي، ١٩٨٧م.

٣- أردو مــين حــج كــي سفرنامــي (رحــلات الحــج الأرديــة) . محمــد شهــاب الديــن، مطبعــة (Universal Book House)، عليكره.

٤- أردو أدب كي تاريخ (تاريخ الأدب الأردي) . تبسم كاشميري، مطبعة (سنغ ميل)، لاهور، ٢٠٠٣م.

٥- أردو أدب مــين سفرنامــه (الرحــلات في الأدب الأردي) . أنــور سديــد، مطبعة (مغربــي باكستان أردو أكيدمي)، لاهور، باكستان.

٦- الإعــلام بمــن في تاريخ الهنــد من الأعلام المسمى بنزهــة الخواطر وبهجة المسامــع والنواظر . العلامة عبدالحي بن فخر الدين الحسني، دار ابن حزم، ١٤٢٠هـ.

٧- تاريخ أدب أردو، وهاب أشرفي، مطبعة (Educational Publishing House)، نيودلهي، ٢٠٠٧م.

٨- جديد شاعري . عبادت بريلوي، مطبعة (Educational Publishing House)، نيودلهي، ١٩٨٣م.

٩- زادِ غريــب معــروف بـ ماهِ مغرب (زاد المغــترب المعروف بقمر المغرب) . النــواب محمد عمر علي خان، مطبعة (غلزار محمدي) ميروت، ولاية أوترا براديش، ١٣١٣هـ.

١٠- ساعة مع العارفين . سعيد الأعظمي الندوي، مكتبة الفردوس، لكناو (الهند)، ١٤٢٨هـ.

١١- سَفَرِ حجاز (السفر إلى الحجاز) لعبد الماجد الدرياباري، مطبعة (نامي) لكناو.

١٢- سفرنامــه حجــاز (الرحلــة الحجازية) أو الهــادي إلى سبيل الرشــاد للقاضي محمــد سليمان سلمان منصور فوري، مطبعة (كانشي رام)، لاهور، ١٣٤٣هـ.

١٣- سفرنامــه حجــاز، مصر، شــام، فلسطين ولبنــان (رحلة الحجاز ومصــر والشام وفلسطــين ولبنان) لخواجة حسن نظامي، مطبعة (Print Center)، كوشه شيلان، نيو دلهي، ٢٠٠٩م.

١٤- سوانحــي إنسايكلوبيديا (موسوعة السير والتراجم). رضاء الرحمن عاكف، مطبعة (كتابي دنيا) نيو دلهي، ٢٠٠٧م.

١٥- عبد الماجد دريابادي: أحوال وآثار. تحسين فاروقي، مطبعة (إدارة ثقافت إسلامية) لاهور، ١٩٩٣م.

١٦- مجلــة (أكادمي) الأردية، العــدد ١٠، نوفمبر وديسمبر ١٩٩٠م، عدد خاص حول شخصية عبد الماجد الدريابادي.

١٧- نُقُوشِ رَفْتَكَانْ (ذكريات الراحلين)، المفتي محمد تقي العثماني، مطبعة (Fareed Book Depot)، نيودلهي، ٢٠٠٦م.

1-Dictionary of Indian Biography, by: C. E. Buckland, published by: Swan Sonnenschein & Co. LIM, London, 1906.

2-Islamic Contestations, by: Barbara D. Metcalf, published by: Oxford University Press, 2006.

3-The Golden Book of India, by: Sir Roper Lethbridge, Published by: Macmillan And Co. London, 1893.